الثورة
الاثنين 23 شوال 1433هـ 10 سبتمبر 2012م العدد (17464)

موازنة نقدية

(بشرى النبوة) للشاعر الأسطورة وقصائد المديح النبوي

● فن المديح النبوي هو عبارة عن الشعر الذي يهتم بمدح رسول الله عن طريق تعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته وصفاته وتعرف المدائح النبوية كما يقول الدكتور زكي مبارك بأنها فن (من فنون الشعر التي أذاعها التصوف فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص)

وإذا كانت بدايات المديح النبوي تعود إلى أوائل سنوات الهجرة فإن هذا الفن تطور كثيرا على يد كثير من الشعراء على مر العصور الإسلامية حتى أصبح اليوم فنا قائما بذاته له خصوصياته وخصائصه وطرقه وغدا المديح النبوي يشكل أحد أهم الفنون في المجتمعات الإسلامية الحديثة.

في هذا السياق تطور فن المديح النبوي في الشعر العربي على يد هؤلاء الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ورسوله وكان منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة .

××ولعل من أهم القصائد في المديح النبوي في المرحلة التأسيسية هي لامية كعب بن زهير ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

ومع أن هذه القصيدة تعد من روائع التراث العربي إلا أن لغة القصيدة في قسم الاعتذار منها للرسول تضعف وتصبح قريبة المأخذ سهلة الأسلوب ولا يبعد كعب كثيرا في اعتذاره للرسول عن أسلوب من سبقه من الشعراء كالنابغة الذبياني يقول النابغة في الاعتذار للنعمان :

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

لكن كعبا يدرك أن الموقف بين يدي رسول الله مختلف عن موقف النابغة بين يدي النعمان فيقول:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ال قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لكنه يعود مرة ثانية لأسلوب الاعتذار الذي سله النابغة فبين أن الوشاة هي التي زادت في الأقوال:

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم أذنب ولو كثرت في الأقاويل

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قيلت في مديح النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أن أعلن الشاعر إسلامه إلا أنها تظل قصيدة جاهلية من حيث التقليد والاتباعية وطبيعة بنائها الشعري ومن حيث حركتها الداخلية وكثرة التشابيه فيها كتشبيه الرسول بالأسد .

عبد الرقيب مرزاح

××أما عن قصيدة البردة أو البرأة للبوصيري ولا شك أنها أهم القصائد التي استوحت قصيدة كعب أو ربما جو القصيدة إذا لم نرد القول إنها محاكاة لقصيدة كعب بن زهير وتجربة مستبطنة عنها ، علاوة على ذلك فإن البوصيري لم يستطع أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه في عملية تماسك بنية قصيدته وترابط معانيها فظهر هيكلها شيء من التداخل مابين أقسامها ،وإذا كان الشاعر قد وقع في ذلك ، فإن مرد ذلك إلى عوامل عصره التي ضعفت فيه الملكة الأدبية وانحسر فيه مد الإبداع الأدبي ،كما أن القصيدة أقصد بردة البوصيري قد صيغت على وزن وقافية وروي قصيدة (هل نار ليلى بدت ليلا) للشاعر الصوفي عمر بن الفارض يقول ابن الفارض في مطلع قصيدته:

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم
أم بارق لاح في الزوراء فالعلم

ويقول البوصيري في قصيدة البردة:

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وليس هناك أدنى شك بالقرابة العروضية والموسيقية وكذلك بعض المعاني وأسماء الأماكن بين قصيدة ابن الفارض وبردة البوصيري ونهج البردة لأحمد شوقي وإن كانت قصيدة ابن الفارض لا تعد من قصائد المدح النبوي لأن ليلى رمز عند المتصوفة يقصد به المدح الإلهي .

××أما أحمد شوقي فقد مدح رسول الله في قصائد مطولة أهمها نهج البردة 190بيتا واستهلها بقوله:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ومن المعروف أن شوقي حاكى بردة البوصيري ولم يدع معارضتها وإن كان مقصده من ذلك التبرك بها كما فعل سابقوه .وهو ذات صنيعه في قصيدته الأخرى :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

نجد أن شوقي قد سار(فكرا وبناء وفي الوزن والقافية) على نهج همزية البوصيري المسماة ب(أم القرى) التي مطلعها:

كيف ترقى في رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء.

علاوة على ذلك فإن معجم شوقي متباعد الأطراف متعدد الألوان شكلا ومضمونا حيث أن الغلبة في قصيدته ولد الهدى كانت للأسماء فطغيان الجمل الاسمية على القصيدة كان ظاهرا بارزا وكانت الأسماء المعرفة هي الغالبة إذ بلغ عددها 135اسما معرفا بينما لم يتجاوز عدد الأسماء النكرة 53 مرة وهذا بدوره أضفى على القصيدة ثباتا وجمودا.

● أما قصيدة البردوني بشرى النبوة فيبدو لي أنها أروع ما كتب في المديح النبوي لجملة أمور أهمها :

1- أن الشاعر الأسطورة عبد الله البردوني فني في حب رسول الله ونسي أن يتطرق لذكر حوائجه بين يدي رسول الله كما صنع كل من كعب والبوصيري وشوقي.

2- لم يعد الشاعر البردوني صياغة السيرة النبوية شعرا بعد أن كانت نثرا كما صنع رفاقه الشعراء السابقون البوصيري وأحمد شوقي بل نراه اكتفى بالدفاع عن رسول الله من دعاوي المستشرقين وتلامذتهم من الأساتذة العرب لاسيما قولهم أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دموي وأن الإسلام لم ينشر إلا بالسيف

3- لم يتخل البردوني عن ذكر وطنه اليمن فقد التحم به وحمله على ظهره حتى عند مناجاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتقمص معايير زمن آخر في بنائه الشعري.

4- أن البردوني لم يبن قصيدته (بشرى النبوة) على غرار أي قصيدة سابقة بل جاءت جديدة في معناها ومبناها .

5- قوة تماسك بنية القصيدة وترابط معانيها حتى عند الانتقال من فكرة إلى أخرى فإن الانسجام النفسي والوحدة العضوية .

ما أود قوله أن قصيدة(بشرى النبوة) لم تأخذ حقها من الدراسات النقدية ولم يشير الدارسون والنقاد إلى ما فيها من مواطن جمال وإبداع.

نزف وعرفان لـ(البردوني) وقبلة محبة لـ(أدباء صنعاء)

عبدالكريم المدي

ألف شكر وألف تحية وألف وردة وألف تعظيم سلام للإخوة الاعزاء في قيادة اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين (فرع صنعاء) الذين دائما ما يقدمون ويرسمون لنا لوحات من الحب والوفاء ويجعلوننا من خلالها نعجز عن التعبير لهم أو على الأقل القول لهم شكرا وبالطريقة والمفردات التي يستحقونها.. على أية حال.. ولعل الصفة التي لا تعجبني أنا شخصيا كتلميذ وصديق للأستاذ الشاعر محمد أحمد القعود، رئيس فرع الاتحاد بصنعاء أنه لتواضعه الزائد يقاطع أي شخص يريد أن يعبر له عن مشاعره تجاهه أو عن موقف ما أو جملة من صفاته النبيلة والانسانية والاخلاقية التي كان آخرها احتفائية فرع اتحاد الادباء بصنعاء بالذكرى ال)13(لرحيل رائي اليمن وشاعرها الكبير عبدالله البردوني.

في هذه العجالة التي خصصتها لهذا الحدث.. وبما أنني أدرك بأن صديقي وشاعري واستاذي محمد القعود لن يعجبه ما أقوله عنه ومن ذلك أنني ومنذ عرفته قبل سنوات أجده مثقلا بالطيبة والتسامح والمحبة والروح المتجددة والوفية التي كنت وما زلت أحسده عليها، أحسده على وفائه لكل أصدقائه ولكل الرموز الأدبية والابداعية والوطنية التي صنعت لهذا البلد الكثير ولم تأخذ منه حتى أقل القليل وعلى رأسها الاستاذ الشاعر الكبير البردوني.

في كثير من الأيام واحتفائيات فرع اتحاد الأدباء بصنعاء بذكرى وتراث البردوني الهام والهائل كان القعود في صبيحة أيام الجمعة التي تتواءم مع ذكرى رحيل البردوني يتواصل مع كثير من الزملاء والاخوة والتلاميذ وأنا بالطبع أحدهم كي ينظموا زيارة في صبيحة هذه الجمعة أو تلك لضريح الراحل عبدالله البردوني بمقبرة خزيمة بالعاصمة صنعاء ووضع الزهور والورود على الضريح.. وقد كان لي الشرف بأن كنت واحداً من الذين لبوا دعوات استاذنا القعود ونالوا شرف الذهاب لزيارة ضريح البردوني.

ونحن نتحدث عن الراحل البردوني واحتفائيات اتحاد الادباء فرع صنعاء به هل تعلمون ما هي أجمل صفات القعود؟ سأجيبكم حسب معرفتي به، أنه لم يتوقف أو ييأس أو يمل أو يتضعضع يوما ما حيال تنظيم مهرجانات الاحتفاء إما بذكرى رحيل البردوني أو بنتاجه وغيره من الرموز الأدبية والثقافية والابداعية التي ظلت وستبقى في حياة اليمنيين واقفة كالأشجار السامقة ولن تسقط أو تموت مهما كانت شدة قساوة الزمن وفجاجته، وبالرغم من المثبطات وشحة الامكانيات لفرع اتحاد الأدباء بصنعاء ونحن نعرف هذا تماماً وبدون مجاملة.. فقد ظل هذا الفرع وفياً ومصراً وغير مستسلم للعقبات أبداً والدليل على ذلك فعالية الاتحاد ومنتدى البردوني اللذين نظما فعالية محترمة، بغض النظر عن إمكانياتها، بالذكرى ال) 13(لرحيل الشاعر الكبير عبدالله البردوني.. والتي احتضنها رواق بيت الثقافة صبيحة الخميس الماضي.

أقول لعل الاستاذ محمد القعود وبالاضافة لما يمتلكه من قيم نبيلة ومعه الاخوة الزملاء في قيادة أدباء صنعاء أدركوا منذ حين أن الإنسان المنفصل عن تاريخه ورموزه الذين يمثلون ذاكرته ليس لهم مستقبل، من هذا المنطلق وغيره احتفوا اليوم كما احتفوا أمس وسيحتفون غدا ونحن معهم ما حيينا بالكلمة التي قهرت وتقهر المدفع وتعلي من شأن الانسان ورسالته ومكانته في الحياة.

على كل وبلا أدنى شك أن الراحل البردوني يستحق أكبر وأكثر من الفعاليات الاحتفائية المتواضعة التي يبذل الاخوة في فرع صنعاء جهوداً مضنية لتحقيقها، لكن يبدو أن المجتمع بمؤسساته الرسمية والاهلية، بالاضافة لمشاكله لم يع بعد من هو عبدالله البردوني، كما أن صراعات المصالح والتقاسمات والمتاريس والفيد والانغماس في مطامع ومطامح ومغريات هذه الدنيا هي السائدة والمسيطرة على أذهاننا بصورة جماعية.. رغم الجهود والافكار والمفاهيم والانتاج الجبار والاستثنائي للراحل البردوني الذي حاول من خلاله جاهداً تخليصنا من تلك الأثقال والأمراض ومن كل ما له صلة بثقافة الاستنقاع والجمود الذهنيين اللذين نتشدد على التمسك بهما وإغراق مجتمعنا بمتنا قضاتهما أيضا وما يصاحب ذلك من نوافل وغيبيات وأساطير وتفاصيل خارجة عن الدين والمنطق وروح العصر.. بيد أن ذلك وبالقدر الذي لم يفدنا أو يفد معظم نخبنا لم يشفع أيضا للراحل البردوني لدى هذا المجتمع بتنظيم فعالية/فعاليات احتفائية ليس على مستوى الوطن اليمني فحسب وإنما العربي والانساني.. وغير ذلك من الانصاف والاستفادة اللذين ينبغي القيام بهما تجاه هذا الرجل الاسطورة الذي قد لا يتكرر في تاريخنا.

لكم أتمنى على الصعيد الشخصي، وتقريبا إن معظم زملائي وأصدقائي القراء يشاطروننني هذه الامنية والمتمثلة بتقدير المجتمع والدولة بمؤسساتها المختلفة وفي مقدمتها الحكومة.. لرجل مبدع بحجم البردوني، وذلك من خلال إعادة طبع جميع أعماله وجعلها متاحة بين يدي القارئ اليمني والعربي.. بل وترجمتها إلى لغات أخرى.. وصدقوني إن هذا وإن حصل موضوع الترجمة مثلا سيتعرف العالم باليمن وربما قد يختصر ذلك 50 عاما قادمة من نحتنا ونضالنا الميؤوس في تعريف العالم بنا وبحضارتنا وتراثنا ومقوماتنا.. كما انه سيخفف من سطوة الصورة النمطية والمترسخة في ذهن الاخر عنا والتي أهم ألوانها وعناوينها هي (الجهل- الفقر- الإرهاب- التخلف- الصراعات- الاختطاف.....الخ).

كما أتمنى مخلصا أن تتحقق جهود وأحلام العزيز الشاعر محمد القعود في إقناعه ومساعيه لدى الحكومة ممثلة بوزارة الثقافة والتي بدأها منذ سنوات طويلة خلت من أجل شراء بيت الراحل البردوني وتحويله إلى متحف يعرض فيه نتاجه وإبداعه ومقتنياته الشخصية وصوره كي يتحول ذلك البيت إلى مرصد حقيقي للأحلام والابداع والنقاء وتلافي ما يمكن أن يقال عنه من جمود وضياع لذاكرتنا وإحساسنا وإبداعاتنا وكذا العمل على إعادة تشكيل أو قل التأسيس لوعي جماعي وطني إبداعي حضاري إنساني.

كما هو معلوم كان البردوني يعمل على التأسيس العملي له والبناء الجاد للانطلاق بالمجتمع من مغاليق هذه الذهنية التي كبلته وثبطت همته وجعلته كل هذه الاوضاع ودورات الصراع والفساد، أقل ما يمكن أن يقال عنه – مع اعتذاري – مجتمع مغلق الحس.

صدقوني ونحن نحتفل بالذكرى ال) 13(لرحيل الاستاذ والمفكر والشاعر الفيلسوف عبدالله البردوني إننا مقصرون جميعا في الاحتفاء بهذه القامة والانتصار لكل الافكار والرؤى والابداعات التي خلفها لنا.. والتي أقلها أن هذا الرجل العملاق الباقي فينا بالإضافة لعظمة ما خلفه كان يضع مقومات وهموم نهضة شعبه في مقدمة أولوياته، بل إنه رفض كل المغريات وانحاز للكلمة وللوطن وللعدالة وللحق وللانسان في هذا البلد الذي أدرك منذ وقت مبكر أنه غارق في تفاصيل المعاناة والصراعات والجهل والفقر والظلم والاحتياجات الاجتماعية.. فعمد إلى محاولة تبصيره بنور بصيرته وصفاء سريرته وتجنيبه اضطراب الرؤيا واخراجه من متاهات التخلف والبحث في أدوات الانتقال به من مملكة الضروريات إلى عصر الحريات.

بدليل أننا وجدناه في معظم نتاجه الابداعي العظيم أكثر إلتصاقاً بهموم شعبه ومقدما السهل الممتنع والقريب من الناس وثقافتهم ومستوى فهمهم، تماما كعمارة الطين البسيطة التي أذهلت – ومازالت تذهل – العالم والتي تحمل زخارف وجماليات ودلالات وقيما وروحا ومفاهيم.. كما سعى البردوني الذي تتعاظم مسؤولياتنا تجاهه وتجاه الاحتفاء به وتقديره من وقت لآخر، على صنع التحولات وكبح المؤامرات وكشفها بالكلمة الرصينة والفاعلة والمؤثرة والشريفة.

ولعله من المنطقي اليوم أن نتساءل من باب الاستفادة ما أمكن من تراث هذا الرجل العظيم: لماذا كان يرفض الأبوبة والتقديس واحتكار الحقيقة وأي نموذج جاهز ومقدس للناس يحرك ويتحكم بسلوكهم وقناعاتهم ووعيهم؟

لقد رفض كل ذلك رفضا قاطعا إيمانا منه أن ذلك بكل ما في الكلمة من معنى يعد استغلالا للانسان وتعدياً على حقه في الحياة، كما أنه يشتت المرء ويجعله مرتهنا لتاريخ وواقع ومستقبل من الضياع والوهم والحقد والجهل والعجز والخنوع والذل.

وكل النماذج والسياسات التي تستعبد الإنسان وتحاوره أيضا بالأوهام وثقافة السراب والضبابية والأسطورة والشعوذة والتزييف حول إرادته وإبداعه وحريته وأهدافه في الحياة وطاقاته وقدراته وثرواته.

في الختام نجدد الاعتراف بأننا سنظل مقصرين عن إنصاف البردوني ولن تشفع لنا على الاطلاق مشاركات وكتابات كهذه، ولكن هذا هو جهد المقل الحائر واعتراف التلميذ الصادق الذي تقيده الكثير من الظروف وتمنعه الكثير من الغيوم عن الرؤياء والتحرك والاسهام والوفاء بما ينبغي.. كما أن جهود الاخوة في اتحاد الادباء فرع صنعاء ستظل حتى حين هي عزاؤنا وحجتنا عند كل وقوف نقفه مع أنفسنا ونحن نجلد الذات على تقصيرها وعقوقها، وحتى نزف قادم ومناسبة أخرى واحتفائية وفاء يجمعنا من خلالها وفيها وعلى دروب رائيها الكبير عبدالله البردوني، اتحاد الادباء بصنعاء نلتقي بأقل نزف وأكثر وفاء وأملاً وتطلعاً وإنصافاً.. ودمتم.